المسرح الغنائي العربي بين النشأة والازدهار والانحسار

أ/ بادية حسن[١] (سوريا)

ظهر المسرح الغنائي في العالم العربي لأول مرة في مصر.مصر التي كانت آنذاك بوتقة حضارية تصهر داخلها كل القادم اليها من فنون وحضارة ثم تخرجه بعد فترة من الزمن متلونا بهويتها ويصبح جزءاً من تاريخها.

(عندما تكون العاطفة أقوى من الكلام نغني ..وعندماتصير أقوى من الغناء نرقص)

هكذا بدأ مفهوم المسرح الغنائي ومن هذا المنطلق.. فهو قبل أن يكون له قصة أو حوارٍ هو عاطفة وفكر يريدان مع بعضهما أن يوصلا شيئا للجمهور سواء بالشعرأو بالرقص أو بالغناء أو بالموسيقا وغالبا بكل هذه العناصر مجتمعة.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهدت مصر نهضةً فنيةً واسعةً بإيعاز ودعمٍ كبيرين من الخديوي اسماعيل الذي أراد لمصر أن تصير قطعة من أوروبا فقد كان اهتمامه بالمسرح جزءاً من اهتمامه بالحركة النهضوية لمصر الحديثة آنذاك .

.وقد شهدت مصر في القرن التاسع عشر نهضة فنية واضحة فأنشأ المسرح الهزلي الفرنسي وأفتتح في حديقة الأزبكية في عام ١٨٦٨ وكذلك أنشأت دار الأوبرا القديمة بمناسبةإفتتاح قناة السويس.. أفتتح عروضها في حفل الإفتتاح فيردي .حيث عرض أوبرا (ريجيليتو) وهي مقتبسة عن نص لفيكتور هوجوبدلاً من أوبرا (عايدة) التي لم تكن جاهزة للعرض كما أتفق مع الخديوي اسماعيل الذي كلفه بها وخصّص ميزانية ضخمة لتقديمها في مناسبة عظيمة كافتتاح قناة السويس.

سينقسم هذا البحث الى عدة مراحل

١ ـ مرحلة التأسيس والنشأة

ولد المسرح الغنائي العربي في مصر على يد الشيخ أحمد أبوخليل القباني(١٨٤٢ ـ ١٩٠٣) الذي قدم الى ميناء الاسكندرية قادماً من بر الشام (سوريا) والذي رحل عن دمشق هارباً من ضغط الظلاميين والمتشددين الدينيين الذين حاربوا فنه واضطرّ الى الهرب منهم وكانت وجهته مصر التي كانت مناخاًخصباًلكل أنواع الازدهار آنذاك .

كان القباني يحمل مشروعاً مسرحياًوموسيقياً متكاملاً فقد كان شاعراً وموسيقياً وأديباً وممثلاًومخرجاً.قدم عروضه على مسرح زيزينيا وقهوة الدانوب وكانت رواياته مستوحاة من التاريخ العربي والإسلامي وقصص ألف ليلة وليلة.

[١] مهندسة مدنية ومطربة وملحنة شرقية. حائزة على جائزة أفضل ترنيمة في مهرجان قيثارة الروح في دار الأوبرا بدمشق عام ٢٠١٠

قبل أن ينتقل الى القاهره حيث منحه الخديوي اسماعيل أرضاً في منطقة العتبة الخضرا ليبني فيها مسرحه الذي شهد أعمالاً مسرحيةً غنائيةً وعروضاً استمرت سبعة عشر عاماً أفرزت فرقته فيها أشهر الفرق المسرحية الغنائية بعد ذلك.

تميزت عروض القباني بالرقص الإيقاعي وكان يتناوب الغناء بين فصول الروايات التي تقدمها فرقة عبده الحامولي والمطربة ألمظ والشيخ سلامة حجازي الذي سنسلط الضوء على تجربته في بحثنا هذا.

هذه الوصلات الغنائية استخدمها القباني إما كأغانٍ لها علاقة بسياق النص المسرحي الدرامي ..أو أحيانا" كان يقحمها لتكون على شكل وصلات غنائية تطريبية لاً علاقة لها بنص العمل.

كتب القباني مسرحياته أغلبها مستوحاة من كتاب ألف ليلة وليلة تلك الحكايات التي كانت تلقى إعجاباً كبيراً من الجمهور خاصة قطعها الشعرية وحبكتها الدرامية التي كان يصوغها .. كمسرحية (الأمير محمود نجل شاه العجم)

فمن إحدى أبياته على لسان الأمير محمود

جنون العشق والبلوى فنون إذا عبثت ندى لبّ عيون

وتلك عن القلوب لها حديث وأسرار تدقّ لها شؤون

وماحركاتها إلا معانٍ بمايبديه تنبعث الشجون

فتنطق من خبايا في الزوايا بما تبدوا به السرّ المصون

فيطمع بالمنى صبا تعنى بمعناه وغايته المنون(١)

يرجع الفضل للقباني في إدخال عنصر الغناء بين فصول المسرحية أولاً ومن ثم إدخاله ضمن المشاهد التمثيلية ثانياً وذلك في المسرح العربي في مصر حيث كان المطربون يقدمون الغناء في الحفلات الخاصة والعامة بمصاحبة التخت الشرقي وكان الممثل والمطرب عمر وصفي أحد أهم ممثلي فرقة القباني في عهدها الأخير الذي ألف فيما بعد فرقة مسرحيةعمل بها على مسرح منيرفا عام ١٩١٧.(٢)

من أشهر وأجمل قدوده التي ألفها القباني واستخدمها في مسرحياته كفواصل غنائية يغنيها المطربون ذوي الأصوات الطربية الجميلة قد(ياطيرا طيري ياحمامة)

ياطيرا طيري ياحمامة وانزلي لدمر والهامة

جيبيلي من حبي علامة ساعة وخاتم ألماس

يكفى عذاب حرام والله

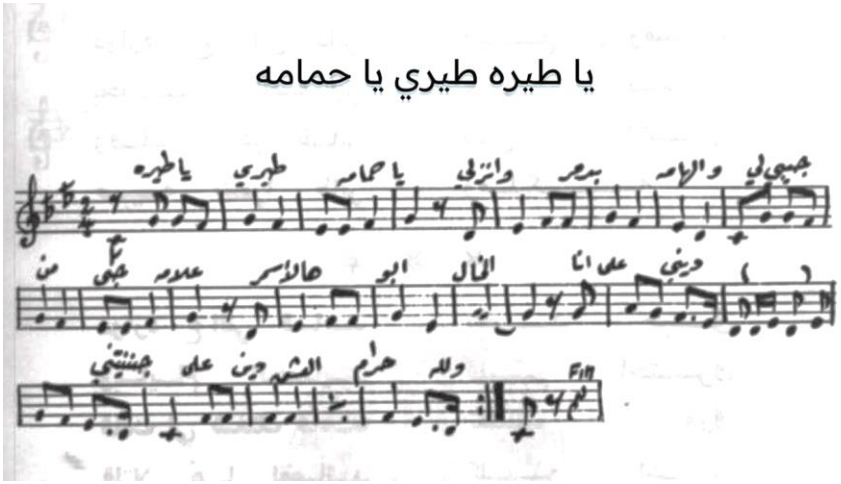

وقد (يامال اشام)

يامال الشام يالله يامالي طال المطال ياحلوة تعالي

طال المطال طال وطول الحلوة بتمشي تمشي وتتحول

يارب يرجع زمن الأول يوم يالطيف ماكان على بالي

وقد(يامسعدك صبحية)
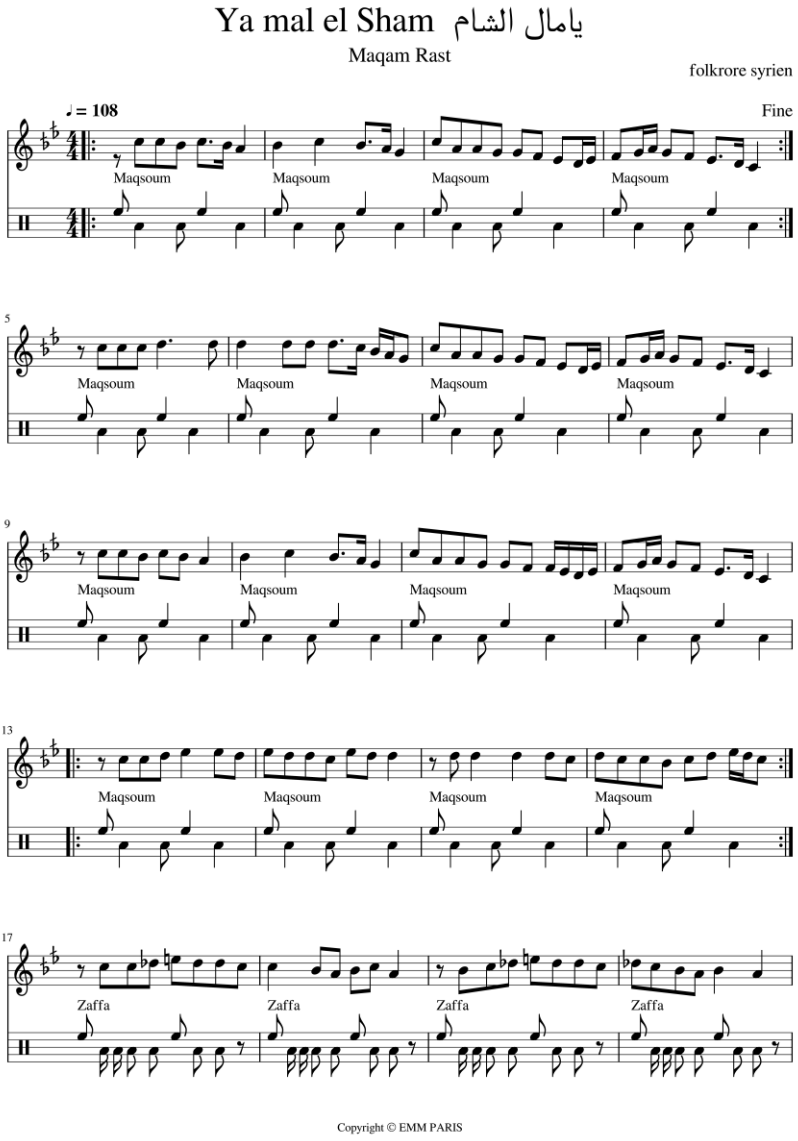
ومع قدوم القباني أصبح الغناء الجماعي يشكل خطاً موازياًلخط الغناء الفردي بمايتضمنه مسرحه من أدوار وموشحات ومواويل ومعزوفات كانت تقدم في الوصلة الغنائية العربية فمن أهم وأجمل الموشحات التي قدمها موشح(يامن لعبت به شمول) من مقام الرست وإيقاع الفالس:

موشح (ياغصن نقا مكللا" بالذهب)

موشح (اشفعوا لي ياال ودي)من مقام الهزام

ومن أشهر أغانيه التي أعاد صياغتها الأخوين رحباني وغنتها فيروز بقالب موسيقي جديد محافظين على نفس اللحن والمذهب متفننين بكلمات جديدة من وحي كلمات الأغنية

بيلبقلك شك الألماس آه ياعيني

أخدوك ياحبيب قلبي ياويل ويلي

شوفوا حبيبي ياعيوني واقف برا شوفوا عمال يتمايل راخي الغرة

حبايب لاتلوموني الفرقة مرة كيف العمل ياحبايب يهوى غيري

وكانت أهم أعماله المسرحية

(ناكر الجميل)١٨٦٧ وهو مقتبس من ألف ليلة وليلة و(هارون الرشيد) و(أنس الجليس)وغيرها الكثير إذ أنه سافر بأعماله إلى الأستانة والولايات المتحدة الأميركية.

وقد قال كامل الخلعي عن القباني "كان مرسحه مورداً عذباً يؤمه الكبراء والامراء والشعراءوالأدباء لمشاهدة رواياته لما جمعت من جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها أرهفت نواحيها بالتهذيب وطرزت حواشيها بكل فكر غريب (٥)

وبينما كان يقدم عروضه في المنيا جاءه الخبر الصاعق أن مسرحه في القاهرة قد احترق بالكامل ولم يبقَ منه شيء وبهذا أسدل الستار عن مرحلة نشاط هذا المبدع الكبير في المحروسة فعاد بحزنه إلى دمشق وتوفي بعد سنتين ليترك لنا إرثاً مسرحياً غنائياً وفكرياً عظيماً.

الشيخ سلامة حجازي

في عام ١٨٨٥ ظهر الشيخ سلامة حجازي لأول مرة على مسرح الأوبرا ممثلاًومغنياً وإذا اعتبر الشيخ القباني هو المؤسس الذي وضع اللبنة الأولى للمسرح الغنائي في مصر فإنّ الشيخ سلامة حجازي هو المنشئ الحقيقي للمسرح الغنائي ..ويعتبر علامة فارقة في تأصيل حركة المسرح الغنائي.. فقد كان يتربع على عرش الغناء بعد موت الحامولي١٩٠١ وقد تأثر أسلوبه في الأداء بالإنشاد الديني من جهة وبالغناء التركي من جهة أخرى.

من المسرحيات التي قدمها الشيخ سلامة حجازي (هناء المحبين ـ بائعة الخبز ـ مطامع النساء ـ حسن العواقب ـ الجرم الخفي ـ شهيدة الغرام ـ اللص الشريف ـ القضية المشهورة ـ وصدق الاخاء)

وقد اعتمدت عليه وعلى صوته الأخاذ فرقة اسكندر فرح ذلك الأديب والمسرحي الفذ الذي أسس فرقة مسرحية كانت تطوف بعروضها في أقاليم مصر ومنها المنصورة حيث عرضت فيها مسرحيات (الخل الوفي)لمحمد المغربي وضحية الغواية ومطامع النساء

وعن رحلة الفرقة الى المنيا ورد في جريدة الوطن في ١٩٠٤/٨/٢٩

ستلبس مدينة المنيا حلل الزينة مساء الخميس ١٥و١٧ سبتمبر حيث يمثل جوق حضرة الأديب اسكندر فرح روايتي (ضحية الغواية)و(هناء المحبين)بناء على طلب جمعية الاتفاق الوطني وهاتين الليلتين ستكونان من الليالي المعدودة التي لم تر مثلها من ثلاث سنوات وفضلاً عن شجى ألحان حضرة المبدع الشيخ سلامة حجازي الذي سيقوم بأهم الأدوار الغنائية التمثيلية وسيجود طرباً بصوتهِ الاستثنائي وأدائه الطربي العظيم(٦)

فنجد ناقد جريدة المحروسة يعتبر هذه الفرقة بآدابها ومعارفها الوسيلة الوحيدة لمحاربة الخلاعة والفجور.

وقد قال مرة الشيخ سلامة حجازي وهو يتحدث عن بداياته:

حملني على اختيار فن التمثيل ميل تولّدَ في صدري وأنا لا أزال منشداً قارئاً للقرآن الشريف وذلك من ترددي على دور التمثيل الأفرنجية مع بعض أصدقائي من كرام السوريين الخبيرين بأصول هذا الفن الجميل فلبيت طلبهم وقمت بتمثيل دورين معاً من رواية (مي)مع جوق سليمان الحداد.

اذا"لقد كان الشيخ سلامة ذلك المنشد الرائع ذو الصوت الرخيم متنوعاً في تقديم نفسه على المسرح ولكن مما لاشك فيه أنه تميز كمطربٍ أدهش الجمهور بصوته وأدائه وأصبح يعلي سوية أي عرض مسرحي يشارك به .

في عام ١٩٠٥ انفصل الشيخ سلامة حجازي عن فرقة اسكندر فرح واستقل بنفسه وكون فرقة خاصة قدمت عروضها في حديقة الأزبكية في صالة سانتي.ثم انتقل في ١٩٠٦ الى صالة فيري وأطلق عليها (دار التمثيل العربي)وانضم اليها فرقة اولاد عكاشة .

في ١٩١٤ اشترك مع جورج ابيض وكونا فرقة أبيض وحجازي وقدما معا" روايات (عطيل ـ ولويس الرابع عشر ـ عايدة ـ صلاح الدين ـ قلب امراة □ في سبيل الوطن)ثم انفصلا في ١٩١٦ وقدم لوحده (غرائب الاسرار) و(قسوة الشرائع) و(العفو القاتل)

توفي سنة ٤ ـ ١٠ ـ ١٩١٧

المرحلة الثانية ٢ ـ **مرحلة التحديث والازدهار**

تقسم الى قسمين

١. **مرحلة سيد درويش.**

في نهايات القرن التاسع عشروبداية القرن العشرين نجد أنٍ معظم الفنون المصرية الحديثة ولدت في الاسكندرية مثل الصحافة كجريدة الأهرام. والسينما من خلال ـ محمد بيومي ـ أيضا فن التصوير الحديث ـ محمود سعيد ـ وفنون التجديد بدأت مع ـ سلامة حجازي ـ ابن الاسكندرية واستمرت عبر سيد درويش.

ولد سيد درويش في الاسكندرية نافذة مصر على العالم في حي كوم الدكة.كان يهوى سماع الشيخ احمد نده وابراهيم الأزهري .وبدأت شهرته منذ كان طفلا حيث كان يقف على كرسي يغني لأصدقائه ثم دخل المعهد الايطالي ليتعلم مبادئ النوتة الموسيقية ولكن ماكان يشغل تفكيره دوما هو حفظ القرآن والسيرة النبوية.

امتهن سيد درويش عدة مهن وهذا ماأعطاه احساساًعالياً بالناس الذين يمتهنوا هذه المهن . وبالرغم من أصوله الشعبية وتعليمه البسيط إلا أن القدر أراد لهذا الفتى السكندري الفذ أن يكون ضمن طليعة التنويريين الذين استنهضوا الروح المصرية في تلك الحقبة.

يقول عنه الشاعر الكبير سيد حجاب

"كان يقف بأغنيته في مواجهة الأمراض الاجتماعية الشائعة وفي الدعوة الى التقدم والرقي والنهوض بمصر وبالصناعة المصرية وبالإنسان المصري.

وفي برنامج بصمات لقناة الجزيرة الوثائقية يقول الباحث والموسيقي د.فتحي الخميسي عن سيد درويشٍ:

"سيد درويش ظل في عدد كبير من أغانيه يدافع عن المرأة و لم يكن أقل عزيمة في الدفاع عن تحرير المرأة من قاسم أمين وقد حول هذا الى لغة موسيقية"

دابختك ده يومك يابنت اليوم قومي اصحي من نومك بزياداكي نوم

وطالبي بحقوقك واخلصي من اللوم ليه مانكونش زي الغربية

ونكافح بحياتنا بحريةٍ

شطارة شاطرين قدارة قادرين مين في خفتنا ودردحتنا مين

ليه مانكونش زي الغربية

ماكان يميزأعمال سيد درويش محاكاتها لهموم الشعب .ومحاكاته لطبقة العمال والفلاحين فقد أتى منهم وعاش بينهم وامتهن مهنهم حتى أصبحت همومهم جزءاًمن همومه التي ترجمها في عدد كبير من أعماله.

شدّ الحزام على وسطك غيره مايفيدك

لابد عن يوم برضه يعدلها سيدك

إن كان شيل الحمول على ضهرك بيكيدك

أهون عليك ياحرّ من مدة إيدك.

شد الحزام
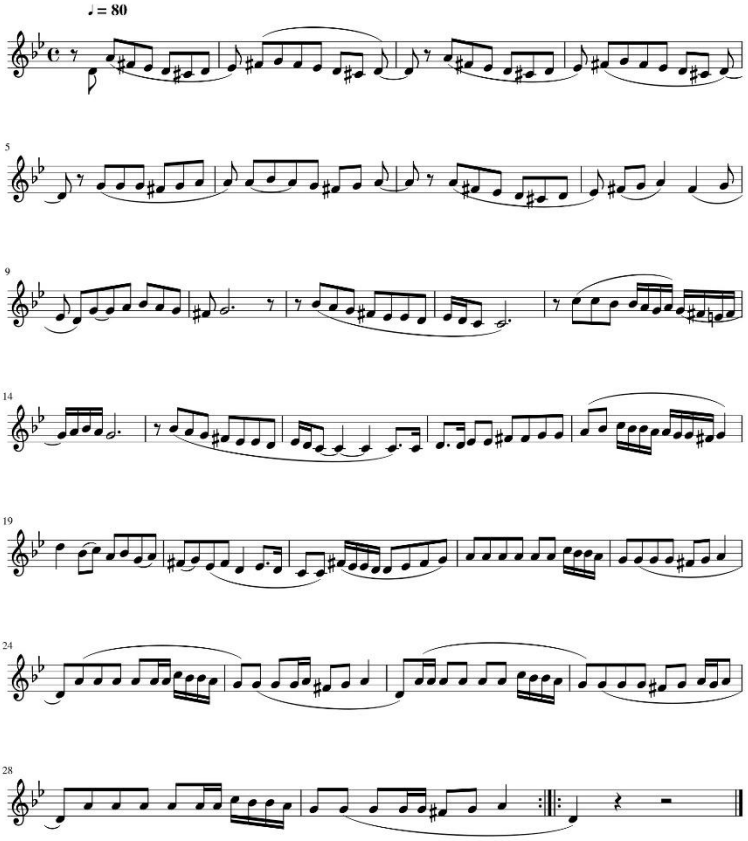
كان لسيد درويش الفضل في نقل الغناء المصري من التطريب الساذج المليء بالزخارف اللّحنية إلى التعبير الصادق عن روح ومضمون مايغنى فأخذ يقدم روح الشعب المصري في مسرحه الغنائي.

لحن سيد درويش سنة ١٩٢٠ أوبريت العشرة الطيبة التي كانت رسالة واضحة تهدف إلى تمجيد الفلاح المصري وتسخر من المستعمر التركي بشكل سافر.

كتب كلماتها بديع خيري وكانت أهم تعاون بينهما.فهي أوبريت استعراضية موسيقية تحاكي الهمّ المصري ومن جمالها وأهميتها أعيد عرضها بعد ذلك من اخراج نجيب الريحاني والسيد بدير.

كان الشيخ سيد يحمل روحا جميلة وبداخله يسكن فنان وثائر وإنسان قلبه مغعم بالحب .فتعرف في أحد الأفراح على جليلة السيدة المصرية التي أصبحت فيما بعد ملهمته.بعد أن جلجلت ضحكتها في المكان فلفتت انتباهه وأسرته بخفة روحها فنظم لها:

خفيف الروح بيتعاجب بيتعاجب برمش العين والحاجب

غمزلي مرة بعيونه لقيت الحب مضمونه
حرام ان كنت أنا أخونه وعشقي ليه من الواجب خفيف الروح
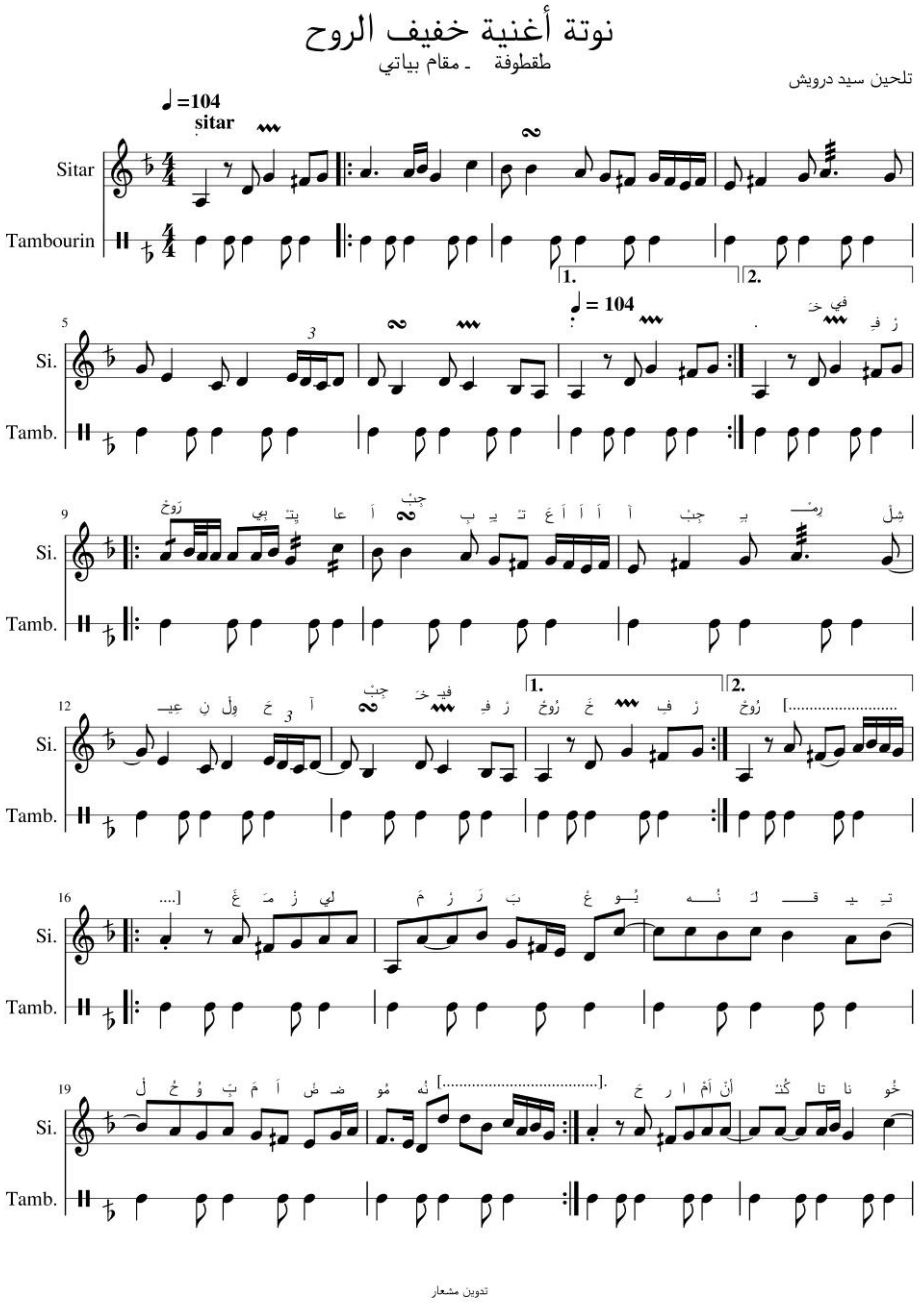
سيد درويش تجربة حضارية كاملة كمافيردي في إيطاليا,أهميته ترجع الى أنه ليس كاتب قصة قصيرة في الموسيقى ,بل هو كاتب الرواية الموسيقية!

هذا اذا استعرنا مصطلحات الأدب ,فخطورته ترجع الى أنه روائي الموسيقا العربية ,الذي صنع لها فن قصصي طويل ممتد يشمل قصة مجتمع في فترة معينة ,مثل ثلاثية نجيب محفوظ,لقد صنع للموسيقا العربية لوحة عامة تصف المجتمع موسيقيا"(٧)

ترك الشيخ سيد إرثاً غنائياً ومسرحياً عظيمين بالرغم من حياته القصيرة والتي لم تسعفه ليستمر في إبداعه مع ذلك تربّع على عرش الموسيقى والتلحين وخلد ذكره كواحد من أهم الملحنين الذين مروا على تاريخ مصروالعالم العربي.

من أهم هذه الاعمال "شهرزاد" و"البارروكة" و"العشرة الطيبة" و"كله من دا"و"عقبال عندكم" و"البربري في الجيش" و"الانتخابات"وعدد كبير من الأوبريتات والمسرحيات التي أخرجها كل من نجيب الريحاني وعلي الكسار وجورج أبيض وأمين صدقي وعمر وصفي باإضافة إلى الموشحات التي لحنها بمنتهى الجمال مثل

ياشادي الألحان على مقام النهاوند الذي كان محبباًإليه ومنيتي عز اصطباري أيضا نهاوند وأجمعوا بالقرب شملي على مقام البيات وياصاحب السحر والدّلال على مقام حجاز كار وغيرها من أجمل الموشحات التي عاشت حتى يومنا هذا.

ومن أهم أعماله الغنائية التي ورد جزء منها في الأوبريتات التي لحنها

دور أنا هويت ـ أهوده اللي صار ـ خفيف الروح ـ الحلوة دي قامت تعجن ـالنشيد الوطني لمصر أ قوم يامصري مصر دايما بتناديك زوروني كل سنة ـ مخسوبكو انداس ـياسي قفاعتـ التحفجية١٢ده وقتك ده يومك يابنت اليوم وغيرها العديد من الاعمال الغنائية التي اثرت المكتبة الموسيقية العربية

استحق لقب فنان الشعب لأنه كان له الفضل الأول في ربط الغناء المصري بالحياة اليومية لأفراد وطوائف الشعب المختلفة ماأدى الى إنزال الغناء من القصور الى الشارع.

توفي سيد درويش في ١٥ سبتمبر عام ١٩٢٣ عن عمر لم يتجاوز ٣١عاما" قضاها بالفن ولخدمة الفن والانسانية ومات حافظاً للقرآن الكريم محباً لوطنهِ أميناً على ثقافتها .وبقيت أعماله تغنى وتدرّس في الجامعات والأكاديميات حتى يومنا هذا.

٢ ـ مرحلة الأخوين رحباني

ولد هذان العبقريان في ساحل أنطلياس في لبنان عاصي ١٩٢٣ ومنصورٍ١٩٢٥ كان والدهماحنا الرحباني يمتلك مقهى نبع الفوار وفي علية المقهىٍ كان عاصي ومنصور يقرآن ويوسعان ثقافتهما ويطلقان العنان للمخيلة أن تتسع وتمتد لتزهر فيمابعد كنوزاً عظيمة أثرت تاريخ المسرح الغنائي العربية لعقود .

لم يكن(الأخوين رحباني) فقط ملحنان بل كانا شاعران من طراز رفيع وموزعان موسيقيان بارعان.

وإذا كان سيد درويش قد بدأ بمرحلة التحديث والتطوير للمسرح الغنائي العربي فقد جاء عاصي ومنصور ليكملا ما أسسه الشيخ سيد وليستفيدا من بعض أعماله بإعادة صياغتها في قالب رحباني مثل ـ أهو داالي صارالتي غنتها فيروز بصوتها الملائكي فأتت منها طرية عذبة وأعطت روح الشيخ سيد في نفس الوقت.

ومثل(الحلوة دي قامت تعجن في البدرية)

والديك بيدن كوكو كوكو في الفجرية

ياالله بينا على باب الله ياصنايعية يجعل صباحك صباح الخير ياسطة عطية

فأصبحت هذه التحفة الموسيقية كدعاءٍ صباحي يفتتح به الناس يومهم.

ومثل زوروني كل سنة التي أخذها الرحبانيان من مكتبة الشيخ سيد وأعادا صياغة الموسيقا بنفس اللحن لتغنيها فيروز بكل عذوبة وجلال صوتها.

زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة

ياخويّ والهوى نظرة تيجي وتروح بالمرة

حبيبي فرقتك مرة حرام تنسوني بالمرة

زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة

لقد نقل عاصي ومنصور المسرح الغنائي من منطقة الأوبريت الى منطقة المسرحية الغنائية الشعرية المتكاملة الأركان والواضحة المعالم من نص وحوار وموسيقا وغناء ورقص وسينوغرافيا

إذ كانا دائما البحث عن تقديم كل ماهو جديد آنذاك ومايترجم قضايا العصر وهمومه فنظما قصائدهما الغنائية من وحي حياتهم ومحيطهم وبلا شك بيئتهم. كان لبنان اخضراً جميلاً بكراً وقد تربى هذان المبدعان بين أشجار أنطلياس وخرير ماء نبع الفوار وزقزقة عصافيره .

تربيا في الضيعة (القرية)وعاشا كل تفاصيل الحياة فأتت اعمالهم مفعمة بالحياة بالحب باالفقربالوطن وبقضايا الانسان فهما لم يكن لهم وطناً عاشا فيه فحسب وإنما صنعا في أعمالهم وطناًعاش فيهم وبمسرحهم. وطن متخيَّل واعد بمستقبلٍ أجمل وبحياةتسود فيها كرامة الانسان أولاً.

ـ كان فن الأخوين رحباني وفيروز هو بلا شك أهم ظاهرة فنية وثقافية عرفها لبنان خلال النصف الثاني من القرن العشرين ويتضافر نفوذه في أربع عوامل:

أولاً ـ صوت فيروز ثانياً ـ العبقرية الموسيقية والشعرية والمسرحية لعاصي ومنصور وثورتهما الفنية الجديدة

ثالثاً ـ فن الرحابنة أقرب ظاهرة ثقافية إلى الشمول الوطني

رابعاً ـ الفن الرحباني فن شعبي .(٨)

لقد أحدثَ المسرح الرحباني ثورةً حقيقيةً في تاريخ المسرح العربي المعاصر

إذ انقسم هذا المسرح إلى ٣اقسام:

القسم الأول ـ المسرح الفولكلوري قاعدته الضيعة(القرية).

موسم العز١٩٦٠ ـ جسر القمر ـ بياع الخواتم١٩٦٤ ـ الليل والقنديل١٩٦٣ ـ ودواليب الهوا١٩٦٥....

تحكي هذه المسرحيات عن هموم الإنسان ككل فكانت أدواته أدوات الضيعة من أخبار الجدات الى الألحانٍ الفلكلورية التي أعاد إحياءها الأخوان رحباني والحبكة القصصية التي ربطت بين عناصرها حتى انتجت عرضاً مسرحياً غنائياً متكاملاً من حوار وشعر وموسيقى واضاءة ورقص وغناء.

القسم الثاني ـ هو المسرح المديني وهومسرح منغمس في السياسة.

أي عندما نزل الاخوان رحباني إلى المدينة بهمومها بعمالها بفلاحيها وبسياسيها فكان نتاجهم عدداً كبيراً من المسرحيات .

هالة والملك ـ صح النوم ـ يعيش يعيش ـ الشخص ـ ناس من ورق ـ المحطة ـ لولو ـ وميس الريم ١٩٧٥ وكانت ميس الريم نهاية مرحلة الاستقرار في لبنان وبداية الحرب الأهلية.

(صح النوم) تتحدث عن بيروقراطية الدولة جيث أنّ الوالي ينام طول الشهر ويصحى يوم واحد فيختم ٣أختام بالشهر فكيف إذاللدولة أن تعمر؟.

مسرحية(جسر القمر) هي قصة صراع بين قريتين على توزيع المياه وفي(بياع الخواتم) يحمي المختار القرية من راجح وقدم الرحبانيان في ١٩٦٣(الليل والقنديل) التي تصور الصراع بين أهل القرية وقطاع الطرق وصناع المصابيح وينتهي الصراع بانتصار النور على الظلام.

أتمّ المسرح الرحباني انتقاله من القرية إلى الفضاء الوطني ومن الصراعات داخل الجماعات الأهلية إلى قضايا الدولة والنزاعات السياسية والاجتماعية كما هي الحال في مسرحية فخر الدينٍ المسرحية التاريخية التي تروي نضال الأمير فخر الدين المعني من أجل استقلال لبنان.

قدما في هذه المسرحية عدة أغاني دبكة لبنان ـ يامغزل ـ غرب الحسون ـ خبطة قدمكن ـ ياساكن العالي ـ بيّ راح مع العسكر ـ مراكبنا عالمينا.

كان لأغنية خبطة قدمكن التي قدماها في جبال الصوان وغنتها السيدة فيروز تأثيراً حماسياًكبيراًلجنود الجيش السوري في حرب تشرين(أكتوبر)فقد كانت كلماتها تمجّد شجاعة الجنود المغاوير وإيقاعها يحثم على مواجهة العدو ببسالة.

خبطة قدمكن عالأرض هدارة انتوا الأحبة والكن الصدارة

خبطة قدمكن عالأرض مسموعة خطوة العز وجبهة المرفوعة

ياحلوة اللي عالحلا عمتوعى عنقك العقد وإيدك الاسوارة

طالع عشهب النار مهرك طالع والبرج بالزينة الغريبة والع

ضحكت صبية وحليت المطالع شعرك قصيدة والخصر زنارا

طيري وخلي هالقلوب يطيروا بلكي الهوى بيبعد نواطيره

ياصبح ورد وزقزقوا عصافيره إنت الهوى يانجمة القمارة

تناول الرحبانيان الصراعات اللبنانية منذ البداية فكانت مسرحية جبال الصوان ١٩٦٩هي حجر الأساس في تناول مسرحهما للنزاعات في مرحلة احتشدت فيها الإشارات والدعوات إلى التغيير

كانت هذه المسرحية تتوج مرحلة ارتبط الفن الراقي في أذهان الناس خلالها بالمد الثوري المتصاعد وبقدرته على إيقاظ الروح الوطنية وتعبئة الجماهير للدفاع عن الوطن وحقوقه المسلوبة واسترداد مااحتل من أراض بالقوة.فقد عرضت هذه المسرحية والجرح العربي مازال ساخنا" من نكسة ١٩٦٧ وماتركته من آثار سلبية على المجتمعات العربية.

وقامت ببطولتها السيدة فيروز بدور (غربة بنت مدلج)ابنة بطل جبال الصوان الذي قام بدوره الراحل نصري شمس الدين.

وفي أغنية غربة تغني فيروز مع الجوقة بحوار رائع

ـ هدتكن الاشاعات

ـ فاجأتنا ياغربة

ـ لما ودعتوا اليأس ولفحتكن ريح الشمس

ورجعت ايديكن تعلي وتعمر

صوت عيادتكن خزق سمعهن

فرح معاولكن بالأرض بشرهن بهدم براجن

حبوا يردوكن عاليأس

عم بيقولوا بدهن يعتقلوا ناس كتير

ـ لاتخافوا مافي حبوس تساع كل الناس

بيعتقلوا كتير بيبقى كتير وباللي بيبقوا

رح منكمل

غمر الطوفان الأرض ورجعوها اللي بقيوا

هدمت الحروب المدن وعمروها اللي بقيوا

استعبد الظلام الناس وحرروهم اللي بقيوا

قلال كتار شوهم بنكمل باللي بقيوا

اتسم المسرح الرحباني بالغنى الموسيقي والغنى على مستوى الحوار واختيار شخوصه فقد اعتمد الأخوين رحباني على أسماء كبيرة ليجسدوا أدواره فنجد الملحن العظيم فيلمون وهبي حاضراً في أكثر من عمل بخفة ظلهِ وجمال حضوره في قالبٍ كوميديٍ ليس هزلي كشخصية سبع في مسرحية (بياع الخواتم).

ونجد انهم أسندواالى فيروز التي هي عماد المسرح الرحباني أدوار البطولة فهي غربة بنت مدلج في(جبال الصوان) وهي قرنفل في (صح النوم) وهي عطر الليل في(فخر الدين) وهي زيون في(ميس الريم) أيضاأدوارها التي فيها خفة ظل بقدر مافيها من الدراما وأحيانا التراجيديا كما في مسرحية(لولو) التي تنبأت بالحرب لما كان في الدولة من فساد وفوض.

اعتمد الاخوين رحباني على قامات كبيرة شعرية كجوزيف حرب وطلال حيدر وسعيد عقل وميشيل طراد وبدوي الجبل وفي مسرحهم وأوبريتاتهم وديع الصافي وصباح ونصري شمس الدين وهدى وسهام شماس وملحم بركات وجورجيت صايغ وغيرهم من الفنانين الذين صنعوا مجدَهذا المسرح طبعا بعد فيروز التي هي الهرم الأكبر في هذاالمسرح.

بعد موت عاصي إكمل المسيرة منصور لوحده وقد قال مقولته الشهيرة:

رحل عاصي وجزء من منصور وبقي منصور وجزء من عاصي..وفعلا قد استمر بروح عاصي ترفرف في فضاء الأعمال المسرحية القادمة فكتب صيف ٨٤٠ ـ والوصية ـ وآخر أيام سقراط ـ والمتنبي ـ وملوك الطوائف ـ وحكم الرعيان ـ وقام في اليوم الثالث .حيث أخرج له ولده مروان الرحباني بعضها.

عرضت آخر أيام سقراط أول مرة في ١٩٩٨ في كازينو لبنان في بيروت ثم في دار الأوبرا المصرية والمسرح الوطني في أبوظبي , وقد ألفها منصور ولحنها وأخرجها ابنه مروان وكان بطلها المسرحي اللبناني القدير ـ رفيق علي أحمد ـ بدور سقراط وكارول سماحة بدور تيودورا الجميلة تلميذة سقراط وصديقته وهدى حداد بدور زوجته كزنتيبي .

وهي مسرحية غنائية تحكي قصة الفيلسوف والمعلم سقراط أهم أغانيها

لو فيي خبيك ـ أحمر لون الثورة ـ نشيد أتينا المدى ـ ياصبية شوي شوي ـ ياأنيتوس ـ شهرو السيف قبال عيوني

وقد برع فيها الممثل والمغني اللبناني جيلبير جلخ والمغنية الفنانة كارول سماحة

واذا كنا قد تناولنا هذا العمل الضخم فنياًوانتاجياً فنكون قد تناولناه على سبيل المثال لا الحصر لأن المسرح الرحباني ككل يحتاج كتاباً من عدة أجزاء للحديث عنه بتفصيلاته البديعة وقد استخدمنه الكثير من طلاب الدكتوراه والماجستيرفي البلدان العربية موضوعاً مهماً ليكون محور أطروحتهم كمثال الوزير اللبناني السابق د.غسان سلامة.

وكتب العشرات بل المئات من المقالات وعشرات الكتب عن هذه التجربة الثرية التي أغنت المسرح الغنائي العربي بعطاء مستمر بمايقارب النصف قرن .

جاءت تجربة الرحابنة لتعطي المسرح الغنائي شكله الناضج في المنطقة العربية فكانت أطول وأغنى مسيرة فنيةمتكاملة في القرن العشرين نقلت المسرح الغنائي العربي إلى منطقة أخرى منطقة المسرح المكتمل الأركان الموازي للمسرح الغربي بقضاياه بحرفيته وباقترابه من هم الانسان والهم العام ..وإذ وضع اللبنة له سيد درويش لكن القدر لم يمهله حتى يبدع أكثر ..فأكمل الرحبانيان ما بدأه الشيخ سيد.

بعد رحيل منصور استمر هذا المسرح بأبنائه غدي ومروان وأسامة فقدما مسرحية (الانقلاب)أخرجها مروان منصور الرحباني وألف موسيقاها غدي منصور الرحباني وقدما فيها أغاني رائعة تشبه الى حد كبير ماقدمه منصور الأب مع أخيه عاصي صاير تسأل عني ـ طالعين طالعين ـ طلوا الفرسان ـ الطبقات بتتصارع ـ روح والله معك سير

٣ مرحلة الانحسار

لعل من أهم أسباب انحسار المسرح الغنائي العربي هي الصعوبات الإنتاجية ..فتكلفة أي عمل مسرحي غنائي هي تكلفة باهظة وذلك لأنه مسرحايحتاج إلى ديكورات وسينوغرافيا وكيروغرافيا وملابس وتسجيل الأعمال في الاستديو ثم تقديمها بتقنية البلاي باك والإضاءة التي تكون عادة متنوعة وغنية أكثر في المسرح الغنائي الاستعراضي عنه في المسرح الدرامي او التراجيدي إضافة إلى أنَّ ممثلين المسرح يتوجب عليهم التفرغ للمسرح الغنائي لأنه يحتاج إلى وقت وبروفات أكثر.

أيضا"في أواخر الثمانينات وأول التسعينات من القرن العشرين ظهرت الفضائيات وظهر معها فن الفيديوكليب في العالم العربي .. الذي ظهر مع التطور التقني لأدوات العرض التلفزيونية والتجارب الفنية السينمائية وكان قد سبقنا إليه الغرب في السبعينيات وأصبح من أهم الفنون السائدة والرائجة على الفضائيات التي كانت تبث ٢٤ساعة برامج في معظمها لوحات راقصة وتصوير لأغاني من مطربي التسعينات غالبالا علاقة لها بمحتوى الأغنية وأصبحت هذه الفنون تدخل كلَّ بيت فيجد المشاهد فيها الغناء والرقص والملابس المبهرة والإضاءة والألوان فتحولت المتعة من متعة الفرجة بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى جمالي من لحظة أن يذهب الجمهور إلى المسرح وهم يلبسون أجمل ماعندهم من ملابس ليحتفوا بطقس حضورِ المسرحية وحتى نهاية العرض والدهشة والمتعة وجرعة الجمال والرقي التي ياخذونها وهم خارجين من العرض.

كل هذا تضاءل حتى اختفى وأصبح الجمهور يفضّل البقاء في المنزل لابسين ربما البيجامة فيشاهدوا عروضاً مجانية جزءاً منها كان يرنو لتخريب الذائقة السمعية والبصرية.

ولو تحدثنا عن انحسار مسرح الأخوين رحباني نجد أن زياد الرحباني دافع عن الاستمرار بيدين عاريتين ..وماساعده أنه غيّر شكل المسرح الغنائي الرحباني بثورة مسرحية انقلب فيها على كلاسيكية طرح هموم الانسان وابتدع مسرحاً اشتغل على نصوصه وأغانيه وموسيقاه وحواره بمايتناسب مع مشاكل اللبناني إبّان الحرب الأهلية حيث تغيرت ملامح المجتمع وأصبحت أكثر تعقيداً فنراه يكتب بعد نزل السرور عام ١٩٧٤ يكتب(بالنسبة لبكرا شو) و(فيلم اميريكي طويل) و(بخصوص الكرامة والشعب العنيد)و(لولا فسحة الأمل)

في معظمها مسرحيات سياسية بحوارها بأغانيها بالموسيقا بعناصرها مكتملة ..ولم تكن تنتج بكلفة عالية فمسرحه متقشف الى حدٍ ما مما يحاكي فكره اليساري والثوري.فلم يكن مسرح زياد إذاً مسرحاغنائياولكننا نستطيع القول أنه مسرحا هادفاسياسياً معاصراً تتخلله أغاني لها علاقة بنص المسرحية غنى معظمها الراحل جوزيف صقر.

لقد كانت نهاية تجربة الرحابنة هي آخر حبة في عنقود المسرح الغنائي العربي الجاد والحقيقي.

ولانغفل في هذه العجالة أسماء كبيرة مرت على تاريخ المسرح الغنائي العربي وتركت بصمةً مهمة ومؤثرة ولم يتسنَّ لنا ذكرها باستفاضة كمثل

الموسيقار كامل الخلعي ـ الأديب اسكندر فرح ـ سليمان الحداد ـ أولاد عكاشة ـ المطربة الكبيرة منيرة المهدية ـ جورج أبيض ـ المخرج علي الكسار ـ المخرج والممثل ورائد الكوميديا نجيب الريحاني الذين ألفوا ولحنوا وأخرجوا وتركوا إرثا مسرحياعظيما.

المراجع

(١)من كتاب المسرح في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٣٥ د.سيد علي اسماعيل

(٢)كتاب المسرح في مصر ١٩٠٠ ـ ١٩٣٥د.سيد علي اسماعيل صفحة ١٢

(٣)المراجع فرحان بلبل المسرح السوري في مئة عام ١٨٤٧ ـ ١٩٤٧

(٤)محمد يوسف نجم المسرحية في الأدب العربي الحديث دار بيروت ١٩٥٦

(٥)كتاب كامل الخلعي بعنوان الموسيقى الشرقية مطبعة التقدم شارع محمد علي بمصر

(٦)جريدة الوطن في ١٩٠٤/٨/٢٩

(٧)د.فتحي الخميسي جريدة البيان فكر وفن عدد تاريخ ٢٨أبريل ٢٠٠٠

(٨)كتاب فواز طرابلسي فيروز والرحابنة مسرح الغريب والأعجوبة